نظرات

الغـــايات

لكل مخلوق لدينا غاية ، ولكل غاية بداية ونهاية ، وأنواع وأوضاع ، وأسباب ومسببات ومحسنات ومقتضيات ، وأقدار وأرقات ، فطرة الله التي فطر الخلق عليها .

وغاية الانسان تهذيب حاله ، وتحسين مآله . وهي مختلفة الالوان متعددة الاركان جرياً على الطبائع ، وما أودع في النفوس من نزوات ونزعات ، للخير والشر ، والجمال والقبح ، وتمشياً مع البيئات وما انطوت عليه من استعداد للغنى والفقر والرفعة والضعة والجد والهزل ، وما احتوته من خلال متباينة ، وما انغمست فيه من مدنية أو همجية ، ودين أو لا دين . ومحرك الغايات ومولد كهربائها عقل المرء ، على سعته أو ضيقه ، وتخبطه وتوفيقه ، وسلامته وسقمه وإقباله أو إدباره ، فهو أكرم خلق الله على الله وعلى الانسان . ووازع العقل وحافزه ، عزيمة قد لا تكل ، وقد تمل ، وقد ترشد أو تضل . والعزيمة إما موروثة أو مكتسبة ، وبغيرها يضحي الرجل أشبه شيء بالطائر ليس له جناح أو فاقد قوادمه وخوافيه . وبداية الغايات متفقة مع بداية الحياة ، ومسايرة لها جنباً لجنب . فالجنين له غاية إلهامية كالمودعة في الحيوان بلا إعمال فكر ، وهي الخروج من الغلاف والظلمة ، إلى نور الدنيا ونسيم الحياة . والطفل من غاياته الرضاع ثم الأكل ثم السير ثم الكلام . فاذا ما شب وترعرع ، شبت معه وترعرعت ولازمته ملازمة الظل ، ثم تتشعب ما تشعبت سرحات عقله . فاذا ما كف العقل عن توزيعها وحصرها في سبيل اختاره جامعاً لها ، ضارباً صفحاً عن خطرات الشباب والفراغ والجدة ، إستقامت غايته وكانت وفق العقل في الرضا والغضب . وكما أن العقل محرك الغايات ومنهاجها الواضح ، كذلك الحزم يحفظ سلامتها . والعزم يرشد ضالتها . فلو قلنا إن العقل سفينة الغايات ، يشق عبابها ، فالعزم قلعها ، والحزم رباتها ، والبيئة مجراها والصبر مرساها .

وليس للغايات مدى تنتهي اليه لانه لا استقرار لهـــا ولا يقطعها إلا الموت قال الشاعر :

وليست حياة المرء إلا أمانيا فان هي ضاعت فالحياة على الأثر

فكما كانت بدايتها مرافقة لبدايته ، كذلك كانت نهايتها مع نهايته . والغايات متصلة حيناً ومنفصلة حيناً آخر . ويترتب بعضها على بعض طوراً ، ويستقل بعضها

عن بعض طوراً آخر . وتتغير تارة وتبعد تارة أخرى . ولكل من هذه الاقسام صور قد يستحضرها المتأمل الى خاطره لو تداعت معانيه بعض الشيء ، لانها متمثلة فى غاية كل إنسان . فأنت تجد أن غايتك تنتقل بك من حال الى أخرى ، بل كأنك تخلقها خلقاً ، إذ كلما تحقق منها جزء ، دفع الى تحقيق غيره ، أو ما يترتب عليـــه ، وهكذا دواليك كالكسر الدائر عند علماء الحساب . ولن يقف لها تيار ما دامت المؤهلات واقفة بالمرصاد تنفخ فى بوقها حاجات الحياة وملابساتها ، وتزج بها ولو فى الشبهات عزيمة مشحوذة وعقل ذو بصر وثاب ، وصبر ثابت طبيعى غير مدخول فيه قال الشاعر :

ما أبعد الغايات إلا أننى أجد الثبات لكم يهن كفيلا

والغايات شريفة كانت أو وضيعة محققة إلا أن يعترض سبيلها عائق ، أو ينصرف الذهن عنها زاهداً فى متاع الدنيا . ومن الغايات ما يوقف المرء موقف الذى يظن أنه قدير على كل شيء ، لا يعجزه شيء فى الارض ولا فى السماء ، فتجلى فى نفسه عاطفة الغرور مقرونة بالوثوق بالنفس زعماً لا حقيقة وراءه ، مهما عوده التوفيق فى الامور لذة الانتصار الكثير وإيهان الصخور وعلى هذا النحو :

قالوا لنابليون ذات عشية إذ كان يرقب فى السماء الاجيجا
من بعد فتح الارض ما ذا تبتغى فأجاب أنظر كيف أفتتح السما

وخلوق هذا النوع له شبه العذر لان غيره وهو بعيد عنه إلا بالسماع ، قد يعتقد فيه ما يعتقد هو فى نفسه أو يظن فيفتتن به إن صدقاً وإن ملقاً على حد قول الشاعر لسيف الدولة :

وتملك أنفس الثقلين طـــراً فكيف تحوز أنفسها «كلاب»[1]
طلبتهـــم على الاهواء حتى تخوف أن تفتشـــه السحاب
فبت ليالياً لا نوم فيهـــا تخب بك المسوّمة العـــراب

وللغايات قوتان : قوة مبينة ، وأخرى منفذة . وهذه الأخرى هى الشجاعة كل الشجاعة العقلية وعلى صخرتها تتحطم سلاسل العقبات ، وأمامها تخور القوى الخالية من التبصر قال الشاعر :

إن الشجاعة فى القلوب كثيرة ووجدت شجعان العقول قليلا

وموعدنا المقال التالى ؟ (الراهب)

---

(١) قبيلة